رمضانيات

الإبداع التجاري في الحضارة الإسلامية

كتب / طارق عابد

للتجارة في الإسلام تراث ذو تاريخ طويل، فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وكثيرٌ من صحابته كانوا تجارا، ولما للتجارة من أهمية في الحياة الإسلامية فقد ضُبطت بتشريعات مُحكمة تُغطي العقود والمبادلات والقروض وآداب السوق. ويقال أن حرف التاء في كلمة تاجر من التقوى والألف من الأمانة والجيم من الجرأة والراء من الرحمة، فالتاجر لابد أن يكون تقياً أميناً جريئاً ذا رحمة. مارس العرب التجارة على نطاق واسع مُنذ أقدم العصور، حتى قيل إن كل عربي تاجر. وقد اعتاد أهل مكة قبل الإسلام على القيام برحلتين تجاريتين سنويا، الأولى في الصيف وتتجه شمالا إلى بلاد الشام، والأخرى في الشتاء وتتجه جنوباً إلى بلاد اليمن. وقد حدثنا القرآن الكريم عن هاتين الرحلتين في سورة قريش.

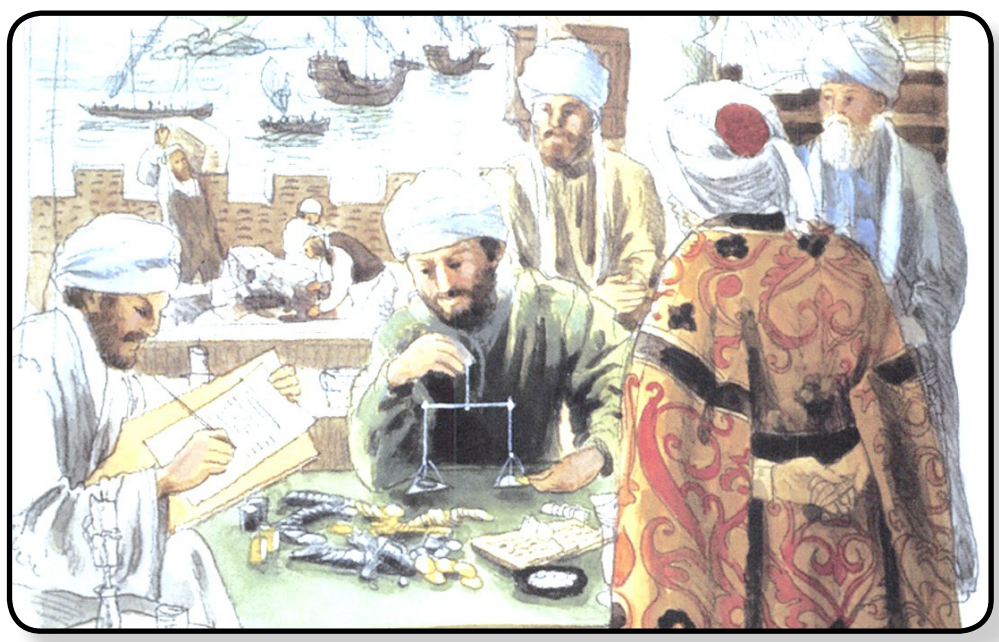

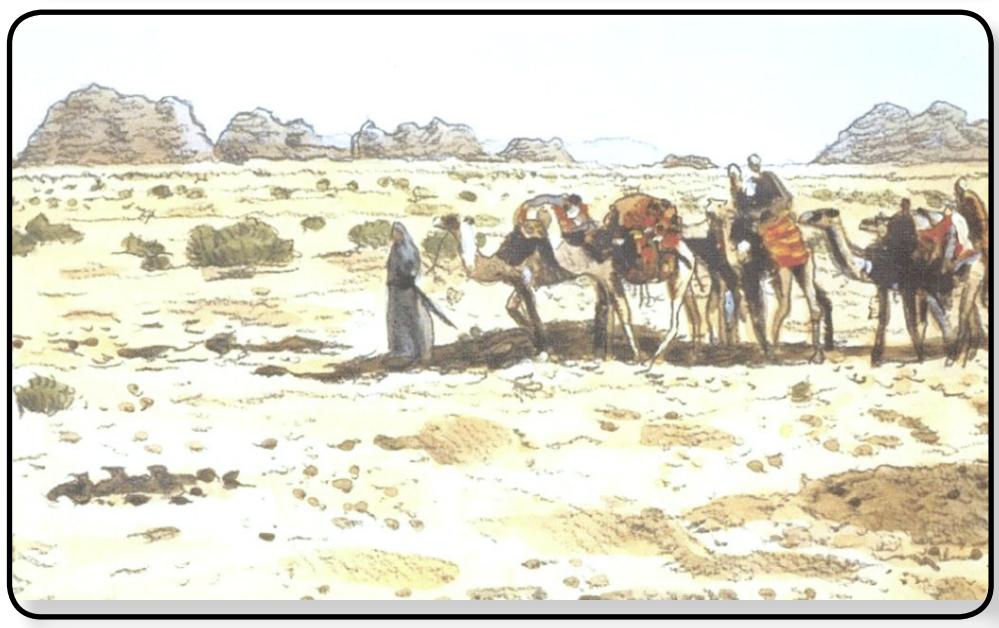

التجارة في الحضارة الإسلامية كانت عالمية

كان للعرب قبل الإسلام علاقات تجارية مع البلدان المجاورة وبخاصة مع بلاد الشام،. وقد اهتم العرب بعد الإسلام بهذا المرفق الاقتصادي لا سيما بعد اتصافهم بالأمم الأخرى، وتقدمهم في ميدان الحضارة. فكثر عدد التجار الرحالين منهم، حتى صارت التجارة من المظاهر المهمة في الحياة العربية ومن الأسس الاقتصادية فيها. وصارت سفن العرب تجوب الأنهار والبحار، وقوافلهم تخترق المهاد والسهوب، تنقل مختلف البضائع في ذهابها وإيابها.

امتدت شبكة التجارة في الحضارة الإسلامية إلى أرجاء البلاد الإسلامية كلها والتي كانت تعج بالتجار والسلع المختارة. وانتقل فيها الذهب والملح المعروف وقتها بالذهب الأبيض شمالا وشرقا من صحاري إفريقيا إلى المغرب وإسبانيا وفرنسا وكانت التجارة البريّة التي تمر عبر طريق الحرير القلب النابض للاقتصاد الإسلامي. أمّا التجارة البحرية فكانت بمحاذاة شواطئ إفريقيا وأوروبا.

كانت الإسكندرية ميناءً كبيراً آخر عند مصب دلتا نهر النيل في البحر الأبيض المتوسط. حيث كانت تنبض بالحياة لأنها كانت ممراً لطريق التوابل بوصفها بوابة تعبر منها البضائع القادمة من المحيط الهندي إلى أوروبا عبر البحر الأحمر ونهر النيل . وكان في الإسكندرية ميناءان، إسلامي في الغرب ومسيحي في الشرق تفصل بينهما جزيرة فاروس ومنارتها الضخمة التي عُدّت حينذاك من عجائب الدنيا.

كما حَمَلَ التُجّار المسلمون بضائعهم إلى العالم فقد حملوا الإسلام معهم أيضاً. ففي القرن الثامن مثلاً أقيمت مستعمرة للتجار المسلمين على الشاطئ الصيني كوانج تشو الموجود في مدينة كانتون حالياً. وبفضل أمانة هؤلاء التجار ونزعتهم الودية انتشر الإسلام في الصين وبالطريقة نفسها انتشر في إفريقيا الوسطى فالبربر وخصوصاً البدو في شمال افريقيا هم الذين حملوه إليها عبر الصحاري حيث تربط الطرق التجارية نهر النيل بالبحر الأحمر.

الخانات والرقابة على الأسواق

ابتكر المسلمون محطات استراحة على طريق التجارة لمساعدة التجار وكانت تعرف بالخانات وهي كالفنادق اليوم، وقد كانت الخانات كالمؤسسات الخيرية اليوم تقدم الطعام والمأوى للمسافرين والتسلية أحياناً لمدة ثلاثة أيام بالمجان. وأقيمت الخانات على مسافات منتظمة تقدر بثلاثين كيلومتراً على الطرق التجارية المهمة وكان لكل خان ساحة محاطة بإيوانات وغرف على طول المبنى مرتبة وفق وظيفتها منها ما هو للإقامة وأخرى للحراسة وبعضها للمستودعات أو الاسطبلات ويماثلها اليوم محطات الخدمات المنتشرة على الطرق في أوروبا.

من جانب آخر عرفت شبه جزيرة العرب نشاطا اقتصادياً من نوع آخر هو الأسواق الموسمية التي كانت تنتقل على مدار العام في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية، ولم يقتصر دور هذه الأسواق على التبادل السلعي والنشاط الاقتصادي فقط، بل كان لها أدوار ثقافية واجتماعية ومن أشهر هذه الأسواق سوق عدن وسوق عكاظ وذي المجاز وغيرها.

تتحدث كتب السيرة أن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم – كانوا يباشرون بأنفسهم مراقبة الأسواق في صدر الإسلام، فقد راقب الرسول الأسواق بنفسه، كما استعمل سعد بن العاص على سوق مكة، واستعمل عمر بن الخطاب على سوق المدينة، وذكر أن عمر إبان خلافته كان يطوف في الأسواق لمراقبة الأمور الجارية فيها، وكذلك فعل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه.

ومع تطور الحياة الحضرية في المدن الإسلامية أصبحت الأسواق على درجة عالية من التنظيم والفعالية، وأصبح السوق خاضعاً لرقابة الدولة من خلال موظف يدعى العامل على السوق يُعيّن من قبل الوالي ويتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ويساعده في تنفيذ مهمته عدد من الأعوان. وكان عليه أن ينظر في مقاعد الأسواق فيُقرّ منها مالا ضرر فيه على المارة وعلى نظام السوق فضلاً عن مهام تنظيمية أخرى، وقد تطورت وظيفة العامل على السوق بعدئذ إلى وظيفة "المحتسب" المعروفة في النظام القضائي للدولة العربية الإسلامية.

القوافل التجارية وتصدير المنتجات

كانت أوروبا وآسيا وأفريقيا تستورد كميات كبيرة من بضائع البلاد الإسلامية، بما في ذلك الأواني الزجاجية المزخرفة والجلود الملونة من مختلف الأنواع والقرميد والبلاط والخزف والفخار والورق والسجاد والمنتجات العاجية المحفورة والمخطوطات المزودة بالصور والرسوم والشروح والمنتجات المعدنية بما فيها السيوف الدمشقية والمزهريات والأقمشة القطنية الناعمة والمنسوجات الحريرية الثمينة والصوفية والكتانية. والحنطة والأرز والسكر والزجاج والزيوت والعطور والزعفران وشراب العنب والمرايا والجواهر والخرز وسنانير صيد الحوت.

وقد كانت المنسوجات والقطع المعدنية والزجاجية الإسلامية والصابون ذات قيمة عالية، وكان اقتناء الزجاج المملوكي المذهب المزخرف يدل على مكانة اجتماعية خاصة وقد وجد علماء الآثار زجاجاً مملوكياً على شواطئ البحر الأسود ومن هناك وصل إلى كييف في أوكرانيا حالياً وإلى روسيا البيضاء وليتوانيا وحتى قلب موسكو ووجدوا بقايا هذا الزجاج أيضا في البلاد الإسكندنافية وموانئ هانز وفي هولندا.

كانت القوافل الإسلامية عبارة عن مواكب ضخمة من الناس يقطعون بسلعهم وحيواناتهم مسافات هائلة وصلت أقصى الآفاق. وكان هدفها إما الحج وإمّا التجارة. وصل هؤلاء التجار حتّى الصين في أقصى الأرض وبلغتها قوافلهم التي انطلقت من الهند وبلاد فارس ومصر.

قطع ابن بطوطة سهوب روسيا عندما رافق السلطان محمد أورزبك خان ووصف رحلته قائلا "أقمت خيمتي على تلة منخفضة وثبتُ علمي أمامها، وسحبت خيلي وعرباتي ورائي ثم وصلت إلى قافلة السلطان فرأينا مدينة واسعة تسير بما فيها من سكان ومساجد وأسواق ودخان مطابخها يعلو في الهواء والعربات التي تجرها الخيول تنقل الناس" لم يكن ابن بطوطة مبالغا في وصفه فقد كان الناس يسافرون بأعداد كبيرة من أجل تيسير التموين وتوفير الحماية.

سكّ العملات والصكوك

لم تكن العملة في الماضي كما نعهدها اليوم وكانت التجارة مقايضة بالسلع وخصوصا بالحيوانات، وقد بسطت دار الإسلام أجنحتها فاستخدمت الذهب والفضة كعملة عالمية وكان المسافرون والرحّالة والتجار في العالم الإسلامي يستخدمون الدنانير والدراهم عندما يطوفون الأسواق في العواصم والمدن الرئيسية والقرى الصغيرة.

وقد سك المسلمون العملة بطريقة دقيقة حسب توجيهات القرآن في قوله تعالى "وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا" ولهذا كان من مسؤوليات الخليفة أن يضمن نقاء القطع النقدية ودقة أوزانها وقد حددت الدولة المعيار بسبعة مثاقيل من الذهب لكل عشرة دراهم فضة وأي عملة لا تحقق هذا المعيار تعد غير شرعية. وكان يؤتى بالعملات الأجنبية والقديمة إلى دار ضرب النقوم مع سبائك الذهب والفضة فيعاد تنقيتها وتسك من جديد.

لم تكن العملات وحدها طريقة الدفع في التجارة بل كان إلى جانبها ما يعرف بالصكوك وكلمة شيك – cheque مأخوذة من كلمة صك العربية وهو عبارة عن كتاب شرف يلتزم فيه الموقع بالدفع لقاء حصوله على السلع عندما تصل إلى غايتها. وفي زمن هارون الرشيد كان رجل الأعمال المسلم يستطيع أن يدفع شيكاً أو صكاً في كانتون بالصين مسحوباً من حسابه المصرفي في بغداد. ونشأت الحاجة لهذه الصكوك لتلافي نقل العملة بسبب المخاطر والمتاعب التي تمثلها واستخدم المصرفيون في ذلك الوقت فواتير تبادل وأوراق اعتماد ورسائل وعود لتكون بمثابة شيكات مستحقة وهذا ساهم بشكل ملحوظ في ازدهار التجارة العالمية للمسلمين.

عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطي

أول خليفة سكّ عملة عربية هو الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان في القرن السابع ميلادياً ونقش على دنانيره الذهبية كتابات عربية، وكان الناس يستخدمون قبل ذلك عملة اسبانية فضية وأخرى بيزنطية ذهبية ونحاسية فوحّد عبد الملك بن مروان المسلمين بنقود عربية منذ عام 691 ميلادياً. كانت هذه العملة تشبه نظيرتها البيزنطية من جهة وعلى الأخرى كُتبَت الشهادتان وهو ما أغضب الإمبراطور البيزنطي لأن العملة الجديدة بدأت تنافسه فرفضها وسكّ عملة جديدة فأغضب تصرفه هذا عبد الملك وقام بسكّ عملة جديدة أخرى عليها الشهادتان من جهة وعلى الأخرى صورة الخليفة وهو يرتدي الزي العربي ويحمل السيف.

استمر الأمر على هذا الحال بين الإمبراطور البيزنطي والخليفة بسكّ عملات مختلفة حتى عام 697 ميلادياً عندها يئس الخليفة من هذه التصرفات وسكّ أول عملة إسلامية لا أشكال عليها ولا شخصيات بل نقش على وجهيّ عملته آيات من القرآن الكريم فكانت كل قطعة نقود رسولاً للعقيدة الاسلامية.

ضرب الفاطميون أيضاً الذين حكموا بين عامي 909 و 1171 ميلادياً دنانيرمنقوشة بالخط الكوفي ولجودتها ووفرتها انتشرت على نحو واسع في تجارة البحر المتوسط وعندما احتل الصليبيون فلسطين نسخوا هذه العملات بدلاً من أن يسكوا عملتهم الخاصة. ومن الأندلس انتقلت الدنانير الذهبية إلى أوروبا بعد الفتح الإسلامي عام 711 ميلادياً ولم يستخدم في الممالك المسيحية سوى العملات العربية والفرنسية على مدى 400 عام.

زكاة الركاز والثروة المعدنية

من الأرزاق التي ساقها الله لعباده المعادن المدفونة في باطن الأرض، والأشياء التي فوقها ، وما يستخرج من أعماق البحار والأنهار والمحيطات ، فسبحانه وتعالى المالك لكل شيء ، والمعطي لكل شيء هو القائل في كتابه الكريم :

(الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَرَى) «طَه : 6.5».

وهذا الرزق يستوجب شكر الله ، وتجب عليه الزكاة ، وأدلة ذلك من الكتاب الكريم عموم الآية الكريمة : (يَا أَيُهَا الذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا من طَيِبَات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَا أَخْرَجْنَا لَكُم مَنَ الأَرْض) «البقَرة : 268» ، والدليل من السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " وفي الركاز الخمس " (رواه الجماعة) .

و يقصد بالركاز الشيء المدفون في باطن الأرض ، مثل الذهب والفضة والماس والنحاس والرصاص.. ونحو ذلك .

. سعر زكاة الركاز 20 % ودليل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " وفي الركاز الخمس " (الجماعة) .

– سعر زكاة المعادن 2.5 % قياسا على زكاة الصناعة .

ويعتبر نشاط المحاجر من الأنشطة الرئيسية في مجال التشييد والبناء ونحوها ، وتتطلب استثمارات كبيرة ، ويدخل هذا النشاط في مجال الثروة المعدنية ، ويخضع للزكاة حسب الآتي :

. لا تجب الزكاة على الأصول الثابتة التي تستخدم في استخراج ونقل مستخرجات المحاجر مثل : الآلات والماكينات والحفارات والسيارات وما في حكم ذلك ، لأنها من عروض القنية المعفاة من الزكاة .

. يدخل في نطاق زكاة المحاجر القيمة البيعية للمستخرج من المحجر من خامات مثل : الحصى والرمل والطفلة والرخام والجرانيت ..وغيره.

. يخصم من إجمالي القيمة البيعية نفقات الاستخراج والتنقية والتهيئة والنقل .. ، وكذلك مصروفات التسويق والمصروفات الإدارية ..وهذا يمثل النفقات الواجبة الخصم .

. يمثل وعاء الزكاة الفرق بين قيمة الإنتاج (إجمالي القيمة البيعية) ناقصاً النفقات الواجبة الخصم.

. يقدر نصاب زكاة نشاط المحاجر ما يعادل 85 جراما من الذهب الخالص ، فإذا وصل الوعاء النصاب تحسب الزكاة . سعر زكاة نشاط المحاجر 2.5 %.

أسماء الله الحسنى

القبض هو الأخذ ، وجمع الكف على شيء ، وقبضه ضد بسطه، الله القابض معناه الذي يقبض النفوس بقهره والأرواح بعدله ، والأرزاق بحكمته ، والقلوب بتخويفها من جلاله .

والقبض نعمة من الله تعالى على عباده ، فإذا قبض الأرزاق عن إنسان توجه بكليته لله يستعطفه ، وإذا قبض القلوب فرت داعية في تفريج ما عندها ، فهو القابض الباسط .

قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ صدق الله العظيم

فبادر أخي المسلم بدفع الزكاة إلى إدارة تحصيل الواجبات الزكوية بوحدتك الإدارية.

وزارة الإدارة المحلية